

## وجهة النظر للمصالح بيننا وبين الآخر



التفكير بصفته نشاطاً بشرياً، إنما يسعى في المحصلة للحكم على الأفعال والأشياء بعد أن تنقلها الحواس الإنسانية إلى الدماغ، وما إن يتبلور حكم العقل ويظهر حتى يتخذ لنفسه سبيلاً أو طريراً أو وجهة إيجارية يميلها عليه الحكم نفسه.. هذا السبيل أو الطريق أو الوجهة، هو ما يطلق عليه وجهة النظر، فوجهة النظر ليست الحكم نفسه، ولن يست كذلك السلوك المبني على هذا الحكم، إنما هي الطريق أو السبيل أو الوجهة التي يقصدها حكم العقل ليتحول بعد ذلك إلى سلوك.

على أي حال فإنّ هذا السلوك الذي نشأ عن وجهة النظر إنما نشأ كرد فعل للواقع المراد اتخاذ موقف بشأنه، وقد يأخذ هذا الموقف أشكالاً سلوكية عديدة، كال فعل أو القول أو الإنكار والاستهجان، أو التقرير والموافقة، أو اللامبالاة باعتبار أنّها سلوك سلبي، ومن هذه الأشكال السلوكية الضحك أو البكاء أو الفرح أو الحزن أو الخوف أو الشجاعة... إلخ.

ولأنّ وجهة النظر تؤثر بسلوك الأفراد والجماعات وطرق معيشتهم وتفكيرهم، فلا بدّ من إماتة اللثام عن وجهة نظر المسلم ووجهة نظر الآخر، تجاه الأفعال والأشياء.

نحن إذن بقصد معرفة رؤى (جمع رؤية) للأفعال والأشياء بمنظار العقل (الفكر)، فالرؤية تمثل "عملية تفسير للأشياء والأحداث في البيئة لجعلها ذات هدف".

وبما أنّ الرؤية نشاط تفسيري، فمحلها العقل أو الفكر، ومجال بحثها، وفهم معطياً لها منتجات العقل: كالعلوم والفنون، والآداب والفلسفات، والفقه واللغات، "كذلك المعرفة من حيث هي معرفة إنما هي نتاج العقل، أي أنّها صالحة للتفكير، وصلاحها مستمد من واقعيتها، أي وجودها كواحد محسوس".

وهذا التعريف لوجهة النظر يلزمها أن تكون صورة مطابقة لحكم العقل، لأجل ذلك لا يمكن أن تجد عند الأقواء من العقلاة تبايناً أو اختلافاً بين أحکام أفكارهم ووجهات أنظارهم، وبالتالي تجد سلوكيات هذه الفئة من الناس وتصرفاتهم مطالبة بوجهات نظرها، فلا ينافسون ولا يتملقون، لأنّهم مصدقون لأحكام عقولهم مؤمنون بها.

بالمقابل يكثُر هذا التباين والتناقض بين وجهات أنظار المهتزمين فكريًا والضعفاء الذين يتصرفون بما يناسب وجهات أنظارهم، وهذا نابع من ضعف إيمانهم بأحكام عقولهم، وتكذيبهم لها، فعقولهم على سبيل المثال أقرت بعناية الخالق لـما خلق، ولكنهم لا يؤمنون به، فنجد الواحد منهم يحمل وجهات نظر عديدة فتراه ينسب الخلق للطبيعة، والعناية لـللقانون البيئي فهو مهترٌ فكريًا، متذبذب سلوكاً وموافق فضعف الفكر يؤدي إلى تعدد وجهات النظر، وتناقض التصرفات، ومن كانت حاله كذلك وصفت وجهة نظره بالضلال، لأن حكم عقله غير متمكن من تحديد مسار معين، فيتختلط ويختار مسارات عديدة وفق ما تمليه عليه أحاسيسه المجردة وميوله القلبية (المتقلبة) وغرائزه وحاجات جسده العضوية وفرق كبير بين التفكير والاحساس، فالاحساس والغرائز غير العقل والعلم غير المهوى.

لأجل ذلك، لابد للمسلم أن يتفكر ويتوسع في العملية الفكرية، لأنّ همه منكب على تحديد وجهة نظره تجاه الأفعال والأشياء ليخلص بالمحصلة إلى اختيار السلوك الأمثل والأعدل، وإنّ لا وقع في الممنوع ورتع في المحظور، طاناً أزّه يحسن صنعاً لكتّه غارق في الصلاة.

تحديد وجهات النظر:

"يعتمد التفكير على ما استقر في ذهن الإنسان من معلومات عن القوانين العامة للظواهر؛ ففي عملية التفكير يستخدم الإنسان ما توافر لديه على أساس من الخبرة العملية السابقة من معلومات عن القوانين والقواعد العامة التي تعكس العلاقات والمبادئ العامة للعالم المحيط بنا".

انظر إلى توأم داخل أسرة واحدة رغم تلقيهما تربية واحدة، ومعلومات واحدة، نجد أنَّ التوأمين يختلفان إزاء واقع معين وهو لا يختلفان في الحكم على وجود هذا الواقع، إنما في فهم دلالة الحكم على الواقع، فرغم أنَّ الشقيقين التوأم تلقيا غذاء متشابهاً وتعرضوا لظروف بيئية واحدة، ومعلومات واحدة، إلَّا أنَّ المدخلات المباشرة وغير المباشرة التي تعرَّض لها كلُّ منها، رغم وجودهما في بيئه واحدة هي التي تحكمت في فهم دلالة الحكم على الواقع سواء كانت هذه المدخلات نفسية كالغيره والميل القلبي وتقليد الأبوين والخدمات النفسية.. إلخ، أو مدخلات عضوية مرتبطة باليأس والميلاد كإصابات الولادة والأمراض التي تحدث توترات في الجهاز العصبي وما يتبع المرض من استخدام للعقاقير التي تحتوي مواد مؤثرة في الجهاز العصبي كالمهدئات والمنشطات.

وحتى لو صح أن التوأم تعرضوا لمدخلات مباشرة وغير مباشرة واحدة، داخل محيط الأسرة، وهذا أقرب إلى الحال فإن المدخلات التي سوف يتعرض لها كل منها خارج محيط الأسرة، سوف يكون لها تأثير كبير على الجهاز العصبي لكل منها كتأثير الأصدقاء والمدرسين.

أما الذي يصح نظرة الإنسان للواقع فهي المعلومات الصحيحة التي يتلقاها من الآباء وغيرهما وإجراء التجارب أمام الإنسان منذ طفولته لإثبات صحة المعلومات أماه.

ما بيننا وبين الآخر:

جبل البشر جميعاً، على السعي لحجب المนาفع لأنفسهم، كما جبلوا على درء المفاسد عنها. إنّ أعمارهم كلّها سواء قصوها يقطين أو نائمين، إنما هي أوقات يسعون من خلالها لتحقيق هاتين المصلحتين، ولا خلاف في ذلك بين قوم وقوم، مؤمنين أو مكذبين ولكن الاختلاف ينصب على النظرة إلى تلك المصالح وطرق تحقيقها، وما ذلك الاختلاف فيما بينهم إلّا امتداداً للاختلاف في وجهات النظر للأشياء والأحداث، وتبعاً للتغير وجهات النظر تتغير نظرة كلّ منهم لمصالحه، وكما تبيّن معنا فإنّ الذي يحدد وجهة النظر حكم العقل فما حكم عليه بثقة وسعي لتحقيقه، وما حكم عليه بأذنه قبيح فرّ منه وتجنبه واعتبره مفسدة.

ولا شكٌ بين الناس مسلمين وغير مسلمين أنَّ الحكم على الأشياء والسميات ودلائلها السلوكية من ناحية الحسن والقبح مرده واحتقاره للعقل وحده، فالنظرية إلى النار وخاصة الإحرار فيها، والماء وخاصة الإحياء فيه، والقلم وخاصة الكتابة فيه، إنما يتم الحكم عليها بواسطة العقل مباشرة دون

اللجوء لأي إملاءات من أحد.

وكون السرقة فعل قبيح يتساوى البشر جميعاً في الحكم على قبحه، فينكرونه ويتأذون منه وينفرون من مرتكبه ولو كان من ذوي القربى حتى إنَّ اللص نفسه يدرك قبحه فيرتكبه في أماكن وأوقات معينة خشية أن يراه أحد.

ومن ذلك أيضاً المرض والفقير، وتوجيه الأطفال والنساء والعجائز أو قتلهم، وإلقاء الأذى في الطرقات، واستغلال المضعفاء والاعتداء على خيرات بلادهم، والتمييز بين الناس على أساس عنصرية. كذلك لاتفاق بين الناس في الحكم على حسن الغنى والصحة والشجاعة وإنقاذ الأطفال من ويلات الحروب وحسن الجوار وصلة الأرحام والمساواة بين الناس على أساس أنَّهم من أصل واحد ومن حقَّهم التمتع بخيرات الدنيا دون تمييز أو تفرقة.

### الحكم على الحسن والقبح:

أما القاعدة المتعلقة بشأن الحكم على الحسن والقبح من الأشياء والسميات دلالاتها السلوكية، والتي يعول عليها دون غيرها، فهي طبع الإنسان وفطنته، لأنَّ ذلك يرجع إلى واقع الشيء الذي يحسه الإنسان، ويدركه عقله مباشرة، وطالما أنَّ الإنسان يشعر بتلك المسميات حسناً أو فيحاً بعقله، دون مرجعية معرفية تملئها عليه تصورات خاصة غير الفطرة والطبع، لذلك كان العقل وحده هو الذي يحكم عليها بالحسن والقبح، ولن تؤثر في حكمه أي مؤثرات أخرى حتى لو كانت فهريمة (جبرية) لأنَّ الفطرة هي المنتصرة في النهاية.

والقاسم المشترك بين تلك الأشياء والسميات دلالاتها السلوكية، أنَّها واقع محسوس بنفسه أو قبل للإحساس والشعور، أو واقع محسوس بأثره، كإحساس بالكهرباء أي بأثرها.

ولكن حكم العقل على الحسن والقبح، لا يعتبر مصلحة أو غير مصلحة، فالعقل لا يستطيع أن يتبيَّن المصلحة فيما حكم عليه من حسن أو قبح، لأنَّ حكمه هنا إخبار عن واقع (حقيقة) الشيء وعن حقيقة ميول الإنسان الفطرية إزاء الشيء لأجل ذلك تتحدد وجهات النظر لدى سائر البشر تجاهه، وتختلف فيما بعد ذلك، أي في الحكم على هذا الشيء مصلحة أو غير مصلحة أي مدحأً أو ذمأً.

هنا يبرز الفرق بين المسلمين والآخرين، فبينما أذن الآخرون لعقولهم بالحكم على وجه المصلحة أو عدمها في المسميات والأفعال، أي سمحوا لعقولهم بالبحث عن أمور غيبية، غير محسوسة (ليست من اختصاص العقل أصلاً) فرق الإسلام بين ما يختص به العقل من أشياء وأفعال وطواها تحت ظلال القاعدة الشرعية العلمية والذهبية "أنتم أعلم بما في دنياكم" وبين ما يختص به الشع بمعاونة العقل (الوصول لحكم الشع لا يكون إلا بالنظر، وفق أصول فقهية) وطواها تحت ظلال قوله تعالى: (وَمَا كَانَ لِهِ مُؤْمِنٌ  
وَلَا مُؤْمِنَةٌ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ  
أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِي اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ مُبَيِّنًا) (الأحزاب / 36).

والذي يعين المسلم على إصدار الحكم على مصلحته في الأشياء والأفعال أو عدم مصلحته، هو حكم الشع، فيما ينحصر دور العقل هنا على البحث والنظر والتنقيب والتدارس في القرآن وبيانه من السنَّة النبوية للوصول إلى حكمه والنزول عنده دون مماطلة أو تأخير أو تسوييف، لأنَّ المماطلة بهذه الحالة تعتبر معصية أو مفسدة وآلا لا يحب المفسدين.

"والهدف من إصدار الحكم عند المسلم بالمحصلة: تعين موقفه تجاه الفعل: هل يفعله، أم يتركه، أم هو مخير بين فعله وتركه، وتعين موقفه تجاه الأشياء المتعلقة بأفعاله هل يأخذها أم يتركها أم يخير بين الأخذ والترك".

إنَّ المصالح بالنسبة للمسلم لا تتحدد إِلَّا من خلال الشع، فما مدحه الشع فهو المصلحة وما ذممه فهو المفسدة.

هذه الحقيقة أكدتها أكثر من آية في كتاب الله كقوله تعالى: (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ

وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكُونَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنَّهُمْ لَا تَعْلَمُونَ (البقرة/216)، أي أنّ ما تطبوه مصلحة لكم قد يكون عين المفسدة، فالالتزام بالصلحة بما شرع الله لكم، فالمصلحة التي لا تعلمونها هي المفسدة التي لا تعلمونها.